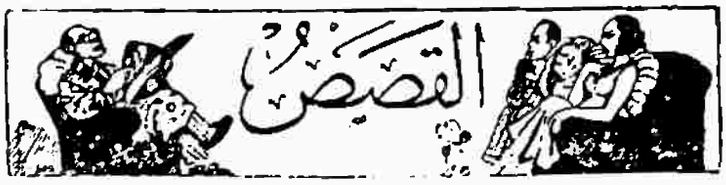

الاختيار الذى كسر قلبي

مقتبسة عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وفى الحق كان هذا الخطاب أول ماشعرت به من عوامل الارتياح منذ أشهر طوال . فلقد أخبرته فيه بما يحيط مركزى من حرج يدعو إلى اليأس . خبرته بمبلغ حبى لابنتى حباً يحول بينى وبين اللحاق به ولكننى اعترفت له بأننى كنت شديدة الخافة فى تصرفى الذى أدى بعد الواحد منا عن الآخر ، وقلت إننى أود على الأقل أن أتمزى فى شقائى بمعرفتى أحواله ولقد كنت أعلم على كل حال أنه قد انتظرنى وأنه لم يستبدل بى أحدا . وطلبت منه أن يبعث برده على خطابى إلى شباك البريد .

قضيت أسبوعين فى عذاب متواصل تتنابنى على التوالى عوامل الخوف والشعور بالجريمة واليأس والأمل ، إذ كنت أذهب كل يوم إلى دار البريد لأسأل سؤالى المألوف : « هل جاءتنى خطابات » ؟ وأتلقى الجواب المألوف أيضاً : « لا ، يا سيدتى »

وأخيراً جاء الرد ، فكان أشبه بالمعجزة أن أقرأ العنوان وكلمات « تيد » مكتوبة بخطه الذى ألفته زماناً طويلا فكان من أعز الأشياء على نفسى . وكأنما كانت تلك الكلمات صوتاً خارجاً من القبر وقد استهلها بقوله « عزيزة نفسى » وقد قال لى فى ذلك الخطاب إن شيئاً واحداً كان ثابتاً فى حياته التى اكتنفها الاضطراب ، وأنه كان متنقلا من مكان إلى مكان وكان خطابى يتبعه حيثما ذهب . وأنه قد عاد الآن إلى لندن ، وسيغادرها بعد قليل ليبحر مرة أخرى إلى الشرق الأقصى . وقد رجانى أن أذهب إليه ، وأن لا أكلف نفسى أكثر من حمل طفلتى معى .

وتبادلنا المراسلات شهراً كاملا محاولين أن نصل إلى حل لمشكلتنا . وقد خيل إلى أننى بمشورى عليه مرة أخرى استطيع أن أتحمل حظى فى الحياة . ولكنى لم ألبث أن أدركت أن هذا الوضع الذى أريد وضع الأمور فيه غير عادل ولا مقبول ، فهناك فى لندن يقيم الرجل الذى أشتاق لقاءه وهو ينتظرنى ويرجونى أن أذهب إليه . فلم أضيع الحياة الوحيدة الصالحة لى احتفاظاً بعقد زواج مجرد من الحب ؟

ومع ذلك لم أكن لأستطيع التفكير فى هجر ابنتى « سو » وكنت أعلم أننى إذا حاولت أخذها من « رونى » فإنه يقدم على كل مستحيل للحيلولة دون ذلك .

وهناك إلى جانب ذلك شعورى الشخصى بروح العدل والإنصاف لا يسمح لى بأن آخذ منه الشىء الوحيد الذى يعيش من أجله فى هذا العالم وما كانت القسوة لتبلغ بى إلى حد أن آخذ « تيد » ولا أترك « لرونى » شيئاً . كذلك لم أكن لأسمح لنفسى بأن أعرض « سو » للحياة فى مركز حربى ببلاد نائية ، حتى لو استطعت أن أخرج بها من هذه البلاد .

احتفظت بخطابات « تيد » وكنت أكرر قراءتها المرة بعد الأخرى باحثة عن حل لهذا الإشكال ، وكنت فى كل يوم أعزم أن أحرق هذه الخطابات ، ولكنها كانت جميلة جداً ، وكان حرقها فى نظرى أشبه بالتخلص من الحب الذى كنت متعطشة إليه ، بعد أن أصبح بين يدى . فكان احتفاظى بهذه الخطابات هو الغلطة الكبيرة الثالثة التى ارتكبتها . فقد كنت أدرك جيداً الخطر من وجودها عندى ، وكنت فى خوف دائم من أن يعثر « رونى » عليها ولو أنها كانت محفوظة فى صندوق المقفل .

وفى يوم من الأيام انحنيت فوق الصندوق أبحث عن شىء من القصاصات لأجعل منها ملابس لعرائس « سو » وكانت « سو » إلى جانبى فمالت إلى نصفها داخل الصندوق وقالت بلهجة الطفولة العذبة « ورق » .

ولم تسترع هذه الكلمة نظرى بادى الأمر ، ولكن بعد بضع دقائق كانت « سو » جالسة على الأرض تعبث ببعض الأوراق عند ما دخل رونى الغرفة .

فأغلقت الصندوق مسرعة وقد دق قلبى دقاته العنيفة وهو يقول :

— لقد عدت لأخبرك أنني لن أحضر الغـداء اليوم هنا .

ثم حمل « سو » بين يديه وقبلها ، وهو يقول :

— كيف حال ابنتي الصغيرة . أترسمين ؟ ألا فدعي أباك يرى ما عملت »

وعلى حين فجأة وفي ثورة جنونية عرفت ما كان في يدها ، فصحت في حماقة بالغة :

— لا . . أريد أن أقول . . إنهـا لا شيء . . هاتها لي »

فنظر روني إلى نظرة غريبة .. ثم أنزل « سو » إلى الأرض فاستمرت ترقص وهي متعلقة بساقيه ، ونظر إلى الخطاب الذي أخذه من ابنته ، فحاولت أن أختطفه من يده ولكنه أمسك بيدي ورفع يدي على رأسي ، وكان لون وجهينا قد استحال إلى صفرة الموت وثقل تنفسنا ، وقال في إيجاز :

— لقد اشتبهت في شيء من هـذا القبيل منذ عهد بعيد ثم تركت يدي وبدأ يقرأ الخطاب ، فانحنيت على الصـندوق وخبأت وجهي بكفي واندفعت في بكاء عنيف ، علماً بأن ما وجدت كان الخاتمة والبداية . فقد كان علمه بما بيني وبين « تيد » عذاباً لي وراحة في وقت واحد . فمعناه مواجهة الحقيقة ثم الاستقرار على أمر

ثم قال وقد تجهم وجهه وتقلصت شفتاه واشتعلت عيناه بنار الجرح الذي أصابه :

— حسناً ، ولعل الخير في أن تذهبي ، ألا ترين ذلك ؟

فضممت « سو » بين ساعدي وضغطت جسمها الصـغير الدافئ إلى صدري ، وقلت في لهجة منقطعة بالتنهد :

— لا أستطيع أن أتركها وأبتعد عنها .

فعانقتني الطفلة وهي تقول بلهجة الطفولة المرحة :

— لا تبكي يا أمي .. لا تبكي .. وانظري «سو» فهي تحبك لا تبكي ...

فانتزع روني الطفلة مني وقال في لهجة مخيفة :

— لا بد من أن تفارقيها ، فإنك لن تأخذيها معك ولن تبقي هنا معها ... إذهبي إليه إن كنت تعنين به فوق ما تعنين بأهلك ! إنك تحبينه ، فلن تبقي هنا تخادعيني !

فقلت متوسلة :

— أرجوك يا روني ... أرجوك أن تفهم !

فأجاب في ثبات :

— إني فاهم ... لقد كنت تحبينه دائماً ... ولم تحبيني قط !

فاذهبي إليه ... ولـكنك لن تأخذي « سو » أبداً .

فقلت باكية : إن لي فيها النصف . فقال :

— إنها لن تعرف لها أباً غيري ... وسأقف معك أمام أية محكمة في البـلاد يا « بام » وسأبرهن على أنك أم غير صالحة لـكفالة ابنتك . وسأعمل الآن كل شيء لإبعادها عنك .

فتدلت شفة « سو » السفلى واضطربت وانحدرت الدموع على وجنتيها الصغيرتين . فأمسك روني بها ولـكنها مدت إلى يديها الصغيرتين وهي تبكي وتقول :

— لا تبكي يا أمي ... أرجوك لا تبكي ...

وإني لأستيقظ في بعض الليالي فأتخيلها أمامي وأسمع كلماتها الأخيرة لي : « لا تبـكي يا أمي ! » ولعل هذا هو السبب الذي لا يعينني على البكاء .

حمل « روني » ابنته إلى الغرفة الثانية ، وسمعته يكلمها في رقة وهو يلفها في معطفها المصنوع من الصوف الأحمر ويلبسها قبعتها الجميلة ويداعبها ويسألها هل تحبه وتحب الخروج معه .

ثم سمعتها تتحدث فرحة مبتهجة ... والحق أنهما سيعيشان معاً عيشة سعيدة ، فلقد كان أباً صالحاً جداً وكانت الطفلة تحبه حباً مفرطاً .. فهما يستطيعان أن يعيشا من غيري .

ووضع « روني » « سو » في الردهة ثم عاد فوقف بباب غرفتي وقال :

— سأعطيك ورقة طلاقك ولـكني سآخذ « سو » معي اليوم . فاسحبي من البنك أي مبلغ من المال شئت ، وخذي أي شيء آخر تريدينه .

أي شيء آخر أريده ؟ وأي شيء يمكن أن أريده غير ابنتي ؟

فشعرت بأن قلبي قد جمد في صدري وقلت باكية :

— ألا تريد حتى أن أبقى هنا !

ولقد كنت حتى تلك اللحظة مستعدة للبقاء معه إذا هو قبل ذلك . فهز رأسه وقال :

— لم يعد ذلك الآن بممكن ، فمن الخير « لسو » أن تعيش بعيدة عن أم لا تستطيع حتى أن تخلص لزوجها .

وسمعت صوت خطاهما وهما مجتازان الردهة ، ثم سمعت صوت إغـلاق الباب وصوت تحرك السيارة ، ثم وثبت إلى النافذة كمن أصيب بفاجعة مفاجئة وأزحت الستار ، فرأيت وجه ابنتي الصغير ملتصقاً بالزجاج الخلفي وقد تفرطح أنفها وهي ترسل لي يدها قبلة

فى الهواء قبل أن يبتعدا عن نظرى .

فاستولى الخبل على نفسى وأسرعت إلى آلة التليفون وطلبت لندن ثم بدأت أعد حقائبى ، وكان كل ما أخذته مما يتصل بابنتى التى لا أحب شيئاً فى الوجود حبى لهـا حذاء من أحذيتها الصغيرة وصورتها الفوتوغرافية ... وتركت صورتى الفوتوغرافيـة وقائمة مشوشة بما يلزمها من طعام ، ودهام ، ودواء إذا أصابها برد .

وكتبت فى آخر القائمة بخط مضطرب : « وغطّها فى الليل »

وكان من عادة الطفلة أن تتقلب ليـلا فيجىء رأسها مكان رجليها وتنفض الغطاء عن جسمها ، وكان نوم « رونى » عميقاً ، فليساعده الله فى أن يعمل لها كل ما كنت أعمله أنا .

ودق جرس التليفون دقاً شديداً وأخيراً سمعت صوت « تيد » المحبوب الذى كدت أنساه ، فلما سمع بأننى قد أصبحت آخر الأمر له ابتهج وصاح .

— لا تشحنى شيئاً فى القطار ، إنك ستركبين الطائرة ياحبيبتى؟ وسأرسل لك المـال اللازم بالتلغراف ... آه ... يا بام ... سأعد الدقائق عداً ! .

فلأسرع ... نعم فلأسرع . بمغادرة البيت ولأذهب الطرقات فى إحدى سيارات الأجرة . . ولأمض لا ألتفت ورائى إلى لعب ابنتى المبعثرة فى أرض الغرفة . .

ولأنظر إلى الأمام . . إلى تيـد ! . . تيد : الذى يستطيع حبه أن يعيدنى « الفتاة » التى كنت من قبل . . جميلة محبوبة ! آه . . ياتيد . . تيد . . إنك ستنسينى كل هـذه السنوات . . . ستنسينها نسياناً تاماً فلا يصحبنى شىء منها ! .

ولقد حاول « تيد » فعـلا أن ينسينى أيام المتاعب . ومن حسن الحظ أننا أبحرنا فى الحال ، فالبحر ، والبلاد الجديدة وليالى شهر العسل فى الناطق الاستوائية كل ذلك كان حلماً ساحراً . وشفاهه العاطشـة وساعداه القويتان الضاغطان ، واجتماعنا معاً ناسيين العالم كله ، وهو يبنى هـذه الأراضى الجديدة التى يقيم فيها . . هذه هى السعادة ، هذه هى الجنة . .

ولكن الطلاق من «رونى» والزواج فى اطمئنان من الرجل الذى أحببته ... لم يكن كله ليمحو عن رأسى ذكرى هاتين السـنتين اللتين عشتهما أما لطفلة صغيرة ... لا أدرى أين هى الآن ومع من هى ، وماذا هى فاعلة ؟ وهل لا تزال تصلى الصلاة التى علمتها ؟ وهل أوصيت فى القائمة التى تركتها بأن تستحم مرتين فى اليوم ؟ ومن الذى يتولى أمر استحمامها بينما يكون « رونى » فى عمله بعيداً عن البيت ؟ أهى خادمة ؟ إن قلبى ليرتجف رعباً عندما أتصور إحدى الخادمات تزجر ابنتى فى خشونة وعنف ...

والآن تكاد « سو » تبلغ السنة الثالثة من عمرها . . أو هى تقرب من السنة الرابعة ... ومن الذى يغطيها فى الليل ؟

وغالباً ما أستيقظ فى الليل على حين فجأة وقد خيل إلى أننى سمعت تنفسها المرتجف الذى يدلنى على أنها تشعر بقسوة البرد .

ومازلت أتوهم مثل هذه الأوهام ، وإن كانت ابنتى قد أشرفت الآن على السنة السادسة من عمرها ... فهى على أهبة الذهاب إلى المدرســـة .. على أن « تيد » الذى كان يشعر باضطراب نفسى ، لم يكن ليبتعد عنى كثيراً فهو دائماً إلى جانبى يحاول أن يواسينى ويهدىء من روعى .. وعلى الرغم من أننى ، من أجله أحاول أن أنسى ، فإننى لا أستطيع النسيان ولا تزال سعادتنا يظللها شبح آلامى وعذاب نفسى .

ليس فى الوجود شىء كامل . وليس فيهـــا شىء كاف لإقناع النفس . فكما كنت من قبل أشتاق إلى « تيد » أنا الآن أشتاق إلى « سو » ، وكما كان رأسى يداعبه الأمل فى أن أجتمع « بتيد » ها هو ذا رأسى اليوم يداعبه الأمل فى أن أجتمع يوما بابنتى ... وحينما ذهبنا ، وبخاصة الآن بعد أن عدنا إلى انجلترا ، تصفحت وجوه الأطفال ، أبحث عن طفلة براقة العينين ، راقصة الساقين ، يداعب الهواء حلقات شعرها الجميل . وقد تكون فى مكان يبعد أميالا عديدة عن مقامى ، وقد تكون على مقربة منى تمر بى فى الطريق .

لقد كتب علىّ أن لا أعرف شيئاً من أمرها ، ولعلى لن أعرف منه شـيئاً أبداً ... وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أصلى من أجلها وأن أدعو الله « أن يحفظها ... وأن يغطيها فى الليل »

عبد الحميد محمدى

يظهر قريباً :

أنات الغـــريب

سكك حديد الحكومة المصرية

خط مصر - بلبيس - الزقازيق - المنصورة

يتشرف المدير العام باعلان الجمهور أنه إبتداء من ١٠ مايو سنة ١٩٤٧ امتد مسير قطار الركاب رقم ٢٨٢ (الذى يغادر المنصورة فى الساعة ٣٠ ٨ إلى الزقازيق) بين الزقازيق والقاهرة فيصلها فى الساعة ٢٥ ١٤ ويغادر القاهرة قطار علاوة برقم ٢٧١ فى الساعة ٤٥ ١٩ إلى الزقازيق فيصلها فى الساعة ٠٥ ٢٢ وفقاً للمواعيد المبينة بالاعلان المعروض بالمحطات .

مطبعة الرسالة